

اليسير في التفسير - الجزء 20-

1.0-496

56- هكذا نصح لوط قومه وزجرهم، فما كان لقوم لوط من جواب له إلا قول بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً والمؤمنين معه من قريبتكم التي يساكنونكم فيها، إنهم أناس يتنزهون عن إتيان الذكران وفعل ما أجمعنا عليه، قالوا ذلك: استهزاء بهم؛ لأنهم لا يشاركونهم في إتيان الرجال بل ينفرون منها وينكرون عليهم فعلها أشد الإنكار.

57- فكانت عاقبة تلك المحاورة التي دارت بين لوط وقومه، أن أنجبنا لوطاً عليه السلام وأهله الذين آمنوا معه من العذاب، إلا امرأته حكمتنا عليها أن تكون من الباقين في العذاب حتى تهلك مع الهالكين؛ لأنها كانت مع كفرها عوناً لقومها على أفعالهم القبيحة راضية بها.

58- وأمطرنا على هؤلاء المجرمين من السماء حجارة من طين فكان مطراً مهلكاً، ففُجَّحَ مطر المُنذَرين الذين خُوفوا بالعذاب وقامت عليهم الحجة ولم ينزجروا فأحل الله بهم عقابه الشديد.

59- قل -أيها الرسول- للناس: الحمد لله وحده والشكر له على نعمه فهو صاحب النعم والمنن على عباده، وسلام وأمان منه على عباده الذين اختارهم ربهم واصطفاهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته، والاستجابة لأمره ونهيه، والطاعة له في السر والعلن، ثم اسأل مشركي قومك أالله الذي يملك النفع والضرر والذي أنعم عليكم بالنعم التي لا تحصى خير أم الشركاء الذين تعبدونهم من دونه ممن لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً؟ فكل من عنده عقل، لا يشك في أن المستحق للعبادة والطاعة، هو الله رب العالمين.

60- واسألهم: مَنْ خلق السماوات والأرض من العدم على غير مثال سابق، وأنزل لكم من السماء ماء الذي لا غنى لكم عنه في شؤون حياتكم، فأثبت بسبب هذا الماء حقائق ذات منظر وجمال يشرح الصدور، ويدخل السرور على النفوس، ما كان في إمكانكم أن تُثبتوا شجر تلك الحقائق لعجزكم عن فعل ذلك، لولا أن الله أنزل عليكم الماء من السماء وهو الذي أنبت لها لكم، أمعبود فعل هذا مع الله حتى يُعبد معه ويُشرك به؟! لا، بل هؤلاء المشركون قوم ينحرفون عن طريق الحق الواضح وهو التوحيد والإيمان عمداً إلى الباطل البين وهو الشرك، فيسوون الله الخالق بالمخلوقين ظلماً في العبادة والتعظيم.

61- أعبادة ما تشركون بربكم خير أم الله الذي جعل لكم الأرض التي تعيشون عليها مستقرة ثابتة لا تضطرب بمن عليها، وجعل وسطها أنهاراً تجري بالماء العذب ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم، وجعل لها جبلاً ثوابت تحول دون اضطرابها، وجعل بين البحرين العذب والمالح فاصلاً يمنع اختلاط الماء العذب بالمالح حتى لا يُفسد أحدهما الآخر فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما أمعبود مع الله فعَل ذلك حتى تشركوه معه في عبادتكم؟! لا، بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح وقَدَر عظمة الله، فهم يشركون به تقليداً لمن سبقهم وظلماً لأنفسهم، ولو كانوا يعلمون لما أشركوا معه أحداً من خلقه.

62- أعبادة ما تشركون بالله خير أم الله الذي يجيب دعاء المكروب إذا دعاه وقد نزلت به المصائب وضاق عليه أمره واشتد، ويرفع ما يقع به من المرض والفقر وغير ذلك،

ويجعلكم خلفاء لمن سبقكم في الأرض يخلف بعضكم بعضاً جيلاً بعد جيل يمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه، أعبود مع الله ينعم عليكم بهذه النعم؟! لا، قليلاً ما تعتبرون وتتعضون نعم الله عليكم، ورحمته بكم، فلذلك أشركتم مع الله غيره في العبادة.

63- أعبادة ما تشركون بالله خير أم عبادة الله الذي يرشدكم في أسفاركم إلى المكان الذي تريدون الذهاب إليه، عندما تلتبس عليكم الطرق، وأنتم في ظلمات البر ومياهاته والبحر وأمواجه بما ينصبه لكم من علامات ونجوم مضيئة، وقلوا لنا: مَنْ الذي يرسل الرياح لتكون مبشرات بقرب نزول المطر الذي يرحم الله به عباده فيحيي مَوَات الأرض بعد أن أصابكم اليأس والقنوط، أعبود مع الله فعل ذلك فتدعونه من دونه؟! كلا، فما فعل ذلك أحد سواه، تنزّه الله وتقدّس عما يشركون به غيره من مخلوقاته.

64- واسألهم من الذي في قدرته أن يوجد الخلق في الأرحام مرحلة بعد مرحلة من نطفة، ثم يحولها إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم يجعله بشراً سوياً، ثم يُفنيه إذا شاء، ثم يعيده بعدما يميته إلى الحياة مرة أخرى؟ ثم قولوا لنا مَنْ الذي يرزقكم من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بأنبات الزرع والنباتات وغيرها من ألوان النعم التي لا تحصى؟ أعبود يفعل ذلك مع الله؟! كلا، لم يفعل ذلك سوى الله وحده، قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هاتوا حجتكم إن كنتم صادقين في زعمكم أن الله تعالى شريكاً في ملكه وعبادته وأنكم على الحق.

65- قل -أيها الرسول- لكل من سألك عن موعد قيام الساعة: لا يعلم الغيب أحدٌ من المخلوقات الكائنة في السماوات

ولا في الأرض من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم من باب أولى، لكنَّ الله وحده هو الذي يعلمه، ولا يدري جميع من في السماوات والأرض متى يبعثون من قبورهم عند قيام الساعة للحساب والجزاء إلا الله إذ علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله وحده.

66- هل كمل علمهم بالآخرة فأيقنوا بها وما فيها من أهوال، حين عاينوا ما أعد لهم فيها من عذاب، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب في الدنيا؟ بل غَمِيت بصائرهم عن الآخرة، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، لذلك أنكروها واستبعدوها.

67- وقال الذين كفروا بالله مستنكرين البعث والحساب: إذا متنا وصرنا تراباً نحن وأباؤنا أيمن أن نبعث من قبورنا أحياء مرة أخرى كهئلتنا هذه بعد أن صرنا جميعاً أجساداً بالية؟

68- لقد وُعدنا بهذا البعث نحن وأباؤنا من قبل أن يخبرنا محمد ﷺ بذلك، فنحن وأباؤنا ما زلنا نسمع من القصاص أن هناك بعثاً وحساباً، ولكن لم نَرَ تحقيقاً لذلك الوعد، ما هذا الوعد إلا مما دَوَّنه الأولون في كتبهم من الأكاذيب وافتروه التي لا مكان لها في عقولنا.

69- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين للرسول المنكرين للبعث: سيروا في أي جهة من الأرض، فتأملوا ديار من كان قبلكم من المجرمين، لتروا بأعينكم كيف كانت نهاية المكذبين للرسول واليوم الآخر، فقد أهلكهم الله بتكذيبهم، والله فاعل بكم مثلهم إن لم تؤمنوا، فاعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم، وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة.

70- ولا تحزن -أيها الرسول- على هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الكفر وتكذيبهم لك وإعراضهم عن دعوتك، ولا يَضِقْ صدرك من مكرهم بك، فإن الله عاصمك منهم وناصرك عليهم.

71- ويقول هؤلاء الكفار المنكرون للبعث من قومك -أيها الرسول-: متى يتحقق هذا الوعد بالعذاب الذي تَعِدُّنا به أنت وأتباعك المؤمنون إذا لم نؤمن بما أنتم مؤمنون به؟ إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به فأنزلوه بنا، فنحن قد طال انتظارنا له.

72- قل لهم -أيها الرسول-: لا تتعجلوا العذاب فعسى أن يكون قد اقترب لكم بعض ما تستعجلون به من عذاب الله أن يقع بكم، وأنتم لا تشعرون بذلك لشدة غفلتكم، وتبلا مشاعركم.

73- وإن ربك -أيها الرسول- لذو فضل عظيم وإنعام كبير على الناس حيث يترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم به، وعصيانهم إياه، وصددهم عن دينه، ومحاربة أوليائه، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على ما يُنعم به عليهم من نعم، فلا يؤمنون به ولا يفرّدونه بالعبادة.

74- وإن ربك أليعلم ما تخفيه قلوب عباده من أسرار وما يظهرهونه من أقوال وأفعال، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

75- وما من شيء غائب عن أبصار الخلق سواء أكان في السماء والأرض إلا هو في كتاب مبين عند الله وهو اللوح المحفوظ، قد أحاط هذا الكتاب بجميع ما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، سجل فيه الله أحوال خلقه.

76- إن هذا القرآن المنزل على محمد ﷺ من معجزاته الدالة على أنه من عند الله يَقْصُ على بني إسرائيل الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها ويكشف انحرافاتهم، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه.

77- وإن هذا القرآن لمن صفاته أننا جعلناه هداية من الضلال، ورحمة من العذاب للمؤمنين الذين صدَّقوا به واهتدوا بهديه وعملوا بما جاء فيه.

78- إن ربك -أيها الرسول- يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم بحكمه العادل، كما يقضي بين غيرهم، فينتقم من الكافرين ويعذبهم، ويجازي المؤمنين ويرحمهم، وهو العزيز الغالب الذي ينتقم من أعدائه فلا يُرَدُّ قضاؤه فيهم، العليم بكل شيء في هذا الوجود فلا يلتبس عليه حق بباطل.

79- ما دمت قد عرفت ذلك فاعتمد -أيها الرسول- في كل أمورك على الله وثق به دون سواه، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحداً إلا إياه، فإنه مؤيدك وناصرك، إنك على الحق الواضح الذي لا ريب فيه.

80- إنك -أيها الرسول- لا تقدر أن تُسمع الحق لهؤلاء المشركين الموتى الذين ماتت قلوبهم؛ بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله، ولا تقدر أن تُسمع الحق من أصمَّ الله سمعهم عن سماعه سماع قبول وانتفاع عند إدبارهم معرضين عنك، فإذا كان الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً، فكيف إذا كان معرضاً عنه مدبراً؟ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

81- ولست -أيها الرسول- بهادٍ عن الضلالة من عميت بصائرهم عن الحق، فلا تحزن عليهم، ولا يمكنك أن تُسمع

إسماعًا نافعًا إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا؛ لأن هؤلاء هم المنقادون لأوامرنا، المستجيبون لما دعوتهم إليه. 82- وإذا وجب العذاب واستحقوه لتماديهم في الكفر والضلال والطغيان وإعراضهم عن شرع الله وحكمه، وبقي شِرار الخلق في الأرض وانتهى الوقت الذي ينفع فيه الإيمان أو التوبة، أخرجنا لهم عند اقتراب الساعة من الأرض في آخر الزمان علامة من علامات الساعة الكبرى، وهي: دابة تكلمهم بما يفهمون: أن الناس المنكرين للبعث كانوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ودينه لا يؤمنون ولا يعملون بأوامره ونواهيه، ولا يصدقون أن هناك بعثًا وحسابًا.

83- واذكر -أيها الرسول- يوم الحشر يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة من كبرائهم ممن يكذب بأدلتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، يُرَد أولهم إلى آخرهم ليجتمعوا كلهم، ثم يُساقون إلى الحساب والجزاء؛ ليعمهم السؤال والتوبيخ ويلقوا مصيرهم المحتوم.

84- ويستمر سوقهم، حتى إذا وصلوا واجتمعوا في مكان الحساب قال لهم الله: أكذبتُم بآياتي التي أنزلتها على رسلي والدلالة على توحيدِي في الكون وعلى أن الآخرة وما يكون فيها من بعث وحساب وجزاء حق، دون أن تتفكروا فيها، ودون أن يكون عندكم أي علم أو دليل على صحة هذا التكذيب حتى تعرضوا عنها؟! أم ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تعتبروا بما فيها؟! تعتبروا بما فيها!!

85- وجب عليهم العذاب وحل بهم؛ بسبب كفرهم وظلمهم وتكذيبهم آياتي، فهم لا يتكلمون بكلمة تنفعهم أو بحجة يدفعون بها عن أنفسهم ما حلَّ بها من العذاب.

86- ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بآياتنا وبالبعث أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، والنهار مضياً ليبصروا فيه للسعي في معاشهم، إن في ذلك الذي جعلناه لهم من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة أدلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يؤمنون بكمال قدرة الله وعظمته ووحدانيته وأنه هو الخالق لكل شيء.

87- واذكر -أيها الرسول- يوم ينفخ إسرافيل الملك الموكل بالنفخ في القرن النفخة الثانية ففرع من في السماوات ومن في الأرض فرعاً شديداً من هول النفخة إلا من استثناه الله من الفرع تفضلاً منه، وكل المخلوقات يأتون إلى موقف الحشر، للوقوف بين يدي ربهم ذليلين مطيعين يتساوى الرؤساء والمرؤوسون في الذل والخضوع لمالك الملك.

88- وترى الجبال في هذا اليوم تظنها واقفة مستقرة في أماكنها، لا تتحرك، وهي تسير بسرعة كسير السحاب الذي تسيره الرياح، وهذا من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقنه على هذا الأحكام العجيب، والإتقان البديع، إن الله خبير بما تفعلون -أيها الناس- من خير وشر ومطلع على ما تخفونه وما تعلنونه، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

89- الذين جاءوا يوم القيامة بالتوحيد والإيمان بالله وعبادته وحده وبالأعمال الصالحة فلهم عند الله خير منها من الثواب

والعطاء حسن وهو الجنة، وهم يوم الفزع الأكبر آمنون بتأمين الله لهم.

90- والذين جاءوا بالكفر والأعمال السيئة المنكرة، فجزاؤهم يوم القيامة أن يكبَّهم الله بسبب شركهم على وجوههم في النار، ويقال توبيخًا وإهانة لهم: ما حل بكم من عذاب هو بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي؟

91- قل لهم -أيها الرسول-: إنما أُمِرْتُ أَنْ أعبد رب مكة، الذي حَرَّمَ على خلقه أَنْ يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يقتلوا صيدها، أو يقطعوا شجرها، وأنعم على أهلها بنعمه، فيجب أَنْ يقابلوا ذلك بالشكر والقبول، وله سبحانه وتعالى جميع ما في هذا الكون خلقًا وملكاً وتصرفًا، وأُمِرْتُ أَنْ أكون من المستسلمين لله المنقادين لأوامره، المبادرين لطاعته. 92- وأُمِرْتُ كذلك أَنْ أتلو القرآن على الناس، فمن اهتدى إلى الحق الذي جئته به، وبينته له وعمل بما فيه، فإنما نفع هدايته واستقامته لنفسه، ومن ضلَّ عن الحق وأنكره وانحرف عنه ولم يعمل بما فيه فقل -أيها الرسول-: إنما أنا نذير لكم أنذركم عذاب الله إن لم تؤمنوا، فأنا واحد من الرسل الذين أنذروا قومهم، وليس بيدي هدايتكم.

93- وقل -أيها الرسول-: الحمد لله على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، سيريكُم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته في أنفسكم وفي السماء والأرض، فتعرفون صدقها فتدلكم على الحق وتبين لكم الباطل، وليس ربكم بغافل عما تعملونه، بل هو مطلع عليه، وسيجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها والعاقبة لك ولا تتابعك المؤمنين.

سورة القصص

1- (طسّم) الحروف المقطّعة لا يعرف معناها إلا الله، نزلت لتحدي العرب أهل الفصاحة.

2- هذه آيات القرآن المنزل عليك -أيها الرسول- هي آيات الكتاب المستحق للتعظيم، المظهر للحق من الباطل، والموضح للخير من الشر، المبين لكل ما يحتاج إليه العباد في دنياهم وآخرهم.

3- نقصُ عليك -أيها الرسول- تلاوة كلها صدق، وخبرًا هامًا، وشيئًا عجيبيًا، يتعلق بخبر موسى عليه السلام وفرعون بالحق الذي لا مرية فيه، لقوم يؤمنون بهذا القرآن، ويصدّقون بأنه من عند الله، ويعملون بما اشتمل عليه من هدايات وعبر وعظات، وهم الذين ينتفعون بما فيه.

4- إن فرعون تكبّر وطغى في أرض مصر، وتسلب على أهلها، وجعلهم طوائف متفرقة، وصار يستعمل كل طائفة منهم، فيما يريده من أمور دولته، فيستضعف طائفة منهم، وهم بنو إسرائيل، يُذَبِّح ذكورهم بمجرد ولادتهم، ويترك الإناث أحياء ليستعبدهم في الخدمة إمعانًا في إذلالهم، إنه كان من المفسدين في الأرض بكبره وظلمه وطغيانه.

5- ونريد أن نتفضل على بنى إسرائيل الذين استضعفهم فرعون في أرض مصر، بإهلاك عدوهم، وإزالة الاستضعاف عنهم، وننجيهم من ظلمه، وننقذهم من قهره وبغيه، ونجعلهم قادة في الخير ودعاة إليه، ونجعلهم يرثون أرض الشام المباركة بعد هلاك فرعون وقومه.

6- وتُمكن لهم في الأرض بجعلهم أصحاب السلطان فيها، ونجعل فرعون وهامان وجنودهما المعاونين لهما في ملكهما الذين علوا وبغوا يرون من هذه الطائفة المستضعفة من بني إسرائيل ما كانوا يخافونه منهم، فقد كان فرعون وقومه يخشون هلاكهم وذهاب ملكهم، وإخراجهم من ديارهم على يد مولود ذكر من بني إسرائيل يكون هلاك فرعون على يده.

7- وحملت أم موسى به في الوقت الذي كان فرعون يذبح الأبناء، وأخفت حملها عن غيرها، فلما وضعته فرعت على مصير ابنها، وهنا أوحى الله إليها وحي إلهام حين ولدته وخافت عليه أن يقتله فرعون وجنوده كما كانوا يفعلون بأبناء بني إسرائيل أن أرضعيه مطمئنة، فإذا خُفت عليه منهم أن يعرفوا أمره فيقتلوه؛ فضعيه في وسط تابوت من الخشب مغلق، وألقيه في نهر النيل، ولا تخافي فلن يقتلوه، ولا تحزني بسبب فراقه، إنا سنرجعه إليك حيًا، وإنا باعثوه رسولًا من الرسل الذين نرسلهم إلى الناس.

8- فامتثلت أم موسى ما ألهمناها من وضع رضيعها في الصندوق بعد أن أرضعته وألقته في نهر النيل حين خافت عليه القتل، فعثر عليه أعوان فرعون وأخذوه، ليتحقق ما قدره الله بأن يكون موسى عدوًا لهم بمخالفتهم وإبطال دينهم، وجالبًا لهم الحزن بإغراقهم وزوال ملكهم، إن فرعون ووزيره هامان وأعوانهما الذين يناصرونهما كانوا آثمين؛ بسبب كفرهم وطغيانهم وصددهم عن عبادة الله، وإفسادهم في الأرض، فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

9- ولمّا شاهدته امرأة فرعون ألقى الله محبته في قلبها، فأراد فرعون قتله، فقالت له امرأته: هذا الطفل سيكون مصدر سرور لي ولك، لا تقتلوه لعله ينفعا بالخدمة، أو نتخذه ولدًا بالتبني، وفرعون وآله لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه، فإنهم لو شعروا لقتلوه، فاستبقاه فرعون حيًا، وألقى الله عليه محبته، وهذا من لطف الله.

10- ولما فقدت أم موسى ابنها موسى، حزنت عليه حزناً شديداً، وأصبح فؤادها خالياً من كل شيء في الدنيا إلا من التفكير في شيء واحد وهو مصير ابنها موسى، فلم تعد تصبر، حتى قاربت لتصرح للناس بأن الذي التقطه آل فرعون هو ابنها من شدة التعلق به، لولا أن ثبتناها فصبرت، ولم تظهر أمر ولدها لتكون من المؤمنين المتوكلين على ربهم، الواثقين بوعده أنه سيرد إليها ابنها، الصابرين على قضائه.

11- وقالت أم موسى لأخته بعد أن ألقته في النهر: اذهبي فاتّبعي أثر موسى لتعرفي خبره وما يُصنّع به، فتنبعت أثره فأبصرته عن جانب منها، وكأنها لا تريد أن تطلع أحدًا على أنها تبحث عن أخيها حتى لا يكشف أمرها، وقوم فرعون لا يعرفون أنها أخته، وأنها تبحث عنه وتتبع خبره.

12- ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من النساء المرضعات من قبل أن نردّه إلى أمه، فقالت أخته بعد أن شاهدت رفضه للمراضع، وبحثهم عمن يرضعه، وحرصهم على إرضاعه: هل أدلكم على أهل بيت يقومون بإرضاعه ورعايته بالتربية الحسنة من أجل راحتكم وراحته، وهم

مشفقون عليه لا يمنعون ما ينفعه في تربيته، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية؟ فأجابوها إلى ذلك.

13- فبعد أن سمعوا منها ما قالت، ودلتهم على أمه، رددنا موسى إلى أمه رجاء أن يطمئن قلبها، وتُسَرَّ عينها برؤيته عن قُرب منها، ووفينا لها بوعدنا إذ أرجعنا إليها ولدها ولم يقتله فرعون، وألا تحزنَ لأجل فراقه، ولتعلم أن وعد الله حق فيما وعدها من إرجاعه إليها، وجعله من المرسلين، فالله لا يخلف وعده، ولكن أكثرهم لا يعلمون بهذا الوعد الحق ولذا يستعجلون الأمور، دون أن يفطنوا إلى حكمته في تدبير أمر خلقه، ولا أحد يعلم أن هذه هي أمه التي ولدته.

14- ولما بلغ موسى منتهى شدته وقوته فصار قوي البنية كامل العقل، آتياه حكماً وعلماً وفقهاً في الدين، وفهماً سليماً للأمر، وإدراكاً قوياً لشؤون الحياة، وكما جزيينا موسى على طاعته نجزي كل من أحسن من عبادنا بأداء ما كلفهم به ربهم في كل زمان ومكان.

15- وفي يوم من الأيام دخل موسى المدينة مستخفياً في وقت راحة الناس في مساكنهم، فوجد فيها رجلين يتخاصمان ويتشاجران في أمر من الأمور، أحدهما: من قوم موسى من بني إسرائيل، والآخر من القبط قوم فرعون، فطلب الذي من قومه النصر على الذي هو من القبط أعدائه، فضربه موسى بقبضة يده فقتله خطأ؛ لشدة الضربة وقوة موسى، وندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، وقال موسى حين قتله: هذا من تزيين الشيطان ووسوسته، بأن هيَّج غضبي حتى ضربت هذا

فمات، إن الشيطان عدو ظاهر العداوة لبني آدم، مُضل عن سبيل الرشاد، وهذا الفعل من موسى كان قبل النبوة.

16- قال موسى داعيًا ربه: ربِّ إني ظلمت نفسي بتلك الضربة التي ترتب عليها قتل النفس التي لم تأمرني بقتلها، فاغفر لي ذنبي هذا، فغفر الله له، إن الله غفور لذنوب من تاب من عباده، رحيم بهم.

17- ثم واصل موسى الدعاء قائلاً: ربِّ بما أنعمت عليَّ بالتوبة والمغفرة والعلم والحكمة والنعم الكثيرة، فلن أكون معيئاً لأحد على إجرامه.

18- فلما قتل موسى القبطيَّ أصبح يسير في طرقات المدينة خائفاً من وقوع مكروه به، يترقب الأخبار مما يتحدث به الناس في أمره وأمر قَتِيلِهِ، فرأى صاحبه الذي طلب نصرته بالأمس يُقاتل قبطياً آخر، ويطلب منه العون والنصرة، قال له موسى: إنك لكثير الغواية ظاهر الضلال؛ لما فعلته بالأمس واليوم.

19- فلما أن أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو له ولبني إسرائيل، ظن الرجل الإسرائيلي أن موسى يريد البطش به لما سمعه يقول (إنك لغوي مبين) فقال: يا موسى أتريد أن تقتلني مثل ما قتلت نفساً بالأمس؟ ما تريد إلا أن تكون طاغية في الأرض، وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس، فسمع القبطي ذلك فعلم أن الذي قتل ذلك الفرعوني هو موسى، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى، فأخذوا في الطريق إليه.

20- وجاء رجل من آخر المدينة مسرعاً شفقة على موسى، فلما وصل إليه قال له يا موسى: إن كبار قوم فرعون يتشاورون

في أمرك ليقتلوك، فاخرج من هذه المدينة ولا تعرض نفسك للخطر، إني لك من الناصحين المشفقين عليك أن يدركوك فيقتلوك.

21- فامتثل موسى لنصح الرجل، فخرج من مدينة فرعون خائفاً يتربقّب الذين يطلبونه ويطاردونه أن يدركوه فيأخذوه، فدعا الله أن ينجيه منهم، فقال: ربّ نجني من القوم الظالمين بأن تحول بينهم وبينني فلا يصلوا إليّ بمكروه.

22- ولما سار مقبلاً بوجهه جهة بلاد مدين وخرج من سلطان فرعون قال: عسى ربي أن يرشدني بسهولة ورفق خير طريق فلا أضل، فأجاب الله دعاءه فوصل إلى مدين.

23- ولما وصل ماء مدين الذي يستقون منه، وجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد بالقرب من تلك الجماعة امرأتين منفردتين عن الناس، تحبسان غنمهما عن الماء؛ حتى ينتهي الناس من السقي ثم تسقيان ماشيتهما، وذلك لئلا تختلطا بالرجال، فلما رآهما موسى رقّق لهما، ثم قال لهما: ما شأنكما؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء، مع أن الناس يسقون منه؟ قالتا: عادتنا أن نتأني فلا نسقي حتى ينصرف الرعاة ويصبح الماء خالياً لنا، حذراً من مخالطتهم، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة وأبونا شيخ كبير السن، لا يستطيع القيام بمهمة الرعي وأن يسقي ماشيته؛ لضغفه وكبره، فاضطررنا للخروج لسقي غنمنا.

24- فرحمهما موسى فسقى لهما ماشيتهما غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله، ثم انصرف إلى ظل شجرة فاستظل بها من شدة حر الشمس واستراح، ودعاء ربه بحاجته

قائلاً: ربّ إني محتاج إلى ما تسوقه إليّ وتيسره لي من أي خير كان، كالطعام والسكن وغيرهما.

25- فلما ذهبتا المرأتان إلى أبيهما في زمن أقل مما كانتا ترجعان فيه أخبرتا أباهما بما حدث، فأرسل إحداهما إلى موسى تدعوه إلى مقابلة أبيها، فجاءته تسير إليه في حياء، قالت: إن أبي يدعوك أن تأتيه ليعطيك أجر ما سقيت لنا غنماً، فمضى موسى معها إلى أبيها للقاءه، فلما جاء أباهما وأخبره بخبره مع فرعون وقومه من قتله القبطي، ومن هروبه إلى أرض مدين، قال له أبوها مطمئناً له: لا تخف فقد أنجاك الله من القوم الظالمين فرعون وقومه، فهم لا سلطان لهم بأرض مدين، ولا يستطيعون الوصول إليك بأي أذى.

26- قالت إحدى المرأتين لأبيها: يا أبتِ استأجر هذا الرجل ليرعى لك ماشيتك ويكفينا مشقة العمل خارج البيت، فهو جدير بأن تستأجره، إن خير من تستأجره للرعي القوي على حفظ ماشيتك، الأمين الذي لا تخاف خيانتَه فيما تأمنه عليه، ومن جمع بين القوة والأمانة كان أهلاً لكل خير.

27- قال أبوهما لموسى مستجيباً لاقتراح ابنته: إني أريد أن أزوّجك إحدى ابنتيّ هاتين، بشرط أن تعمل أجيراً عندي في رعي ماشيتي ثماني سنين مقابل مهرها، فإن أكملت عشر سنين فهذا تفضل وإحسان من عندك لا يلزمك، وما أريد أن أشق عليك في أمر من الأمور خلال استئجاري لك، بل ستجدني إن شاء الله من الصالحين في حسن المعاملة، وفي لين الجانب والوفاء بما قلتُ.

28- قال موسى في الرد على الشيخ الكبير: ذلك الذي قلته قائم بيني وبينك على ما تعاقدا عليه، فأَي المَدَتين أدَيْتَه معكَ أَجِيرًا عندكَ ثمانِي سَنِينَ أو عَشْرَ فَلَا عَدْوَانَ عَلَيَّ، وَلَا تَطَالِبْنِي بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا، وَاللّٰهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ يَرِاقِبُ مَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ، وَتَعَاهَدْنَا عَلَى تَنْفِيزِهِ، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا.

29- فلما أكمل موسى لصاحبه المدة عشر سنين، وهي أتم المَدَتين وأوفاهما، وكان قد تزوج بإحدى ابنتي الشيخ الكبير، استأذن منه وسار بزوجه متجهًا إلى مصر، فأبصر من جانب الطور نارًا، وكان في ليلة مظلمة شديدة البرد، قال لأهله: تمهلوا واثبتوا مكانكم إني أبصرت نارًا، لعلِّي آتيكم من مُوقِدها بخبر يدلنا على الطريق، أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها، وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

30- فلما اقترب موسى من النار التي أبصرها ناداه ربه من جانب الوادي الأيمن لموسى من ذلك المكان الطيب من جانب الشجرة: أن الذي يخاطبك ويكلمك يا موسى هو الله رب العالمين.

31- وأن ألق عصاك، فألقاها موسى امتثالًا لأمر ربه، فصارت حية تسعى، فلما رآها موسى تضطرب وتتحرك كأنها في سرعة حركتها وشدة اضطرابها ثعبان يدب بسرعة ولَّى هاربًا خوفًا منها، ودون أن يفكر في العودة إليها، فناداه ربه: يا موسى أقبل ولا تَحَفْ منها، إنك من الأمنين من كل مكروه تخافه، فرجع موسى عليه السلام غير خائف، بل مطمئنًا، واثقًا بوعده ربه.

32- افعل يا موسى ما أمرناك به، أدخل يدك في فتحة قميصك المفتوحة إلى الصدر، وأخرجها تخرج بيضاء مثل الثلج من غير برص ولا مرض، فأدخلها موسى فخرجت بيضاء من غير برص، وإذا أصابك خوف عند معاينة الحية فاضم يديك إلى جنبيك لتهدأ وتطمئن، فضمها موسى إليه فذهب عنه الخوف، فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى: من تحوّل العصا حية، وجعل يدك بيضاء من غير برص ولا مرض حجتان واضحتان من ربك أرسلتك بهما إلى فرعون وكبار قومه، إن فرعون وملاه كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله بالكفر والظلم وارتكاب المعاصي.

33- قال موسى: ربّ إني قتلت من قوم فرعون نفسًا فأخاف أن يقتلوني إذا ذهبت إليهم لأبلغهم ما أرسلتني به.

34- وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا، فهو أقدر مني على المدافعة عن الدعوة وعلى توضيح الحق، فأرسله معي إلى هؤلاء القوم معيّنًا يصدقني في كلامي إن كذبتني فرعون وقومه، ويبين لهم عني ما أخاطبهم به، ويخلفني إذا ما اعتدى علي، إني أخاف أن يكذبوني إذا لم يكن معي أخي هارون يعينني ويصدقني.

35- قال الله لموسى عليه السلام: لقد استجبنا لدعائك يا موسى، وسنقويك فنعينك ببعث أخيك معك، ونجعل لكما حجة وتأييدًا على فرعون وقومه، فلا يصلون إليكما بأذى تكرهانه؛ بسبب إبلاغكما آيات الله، أنتما ومن آمن بكما واتبعكما المنتصرون على فرعون وقومه، ففوضا أمركما إلي.

36- فذهب موسى برسالة ربه ليأمرهم بعبادة الله وحده، فلما جاء موسى عليه السلام فرعون وملأه بآياتنا الواضحات وأدلتنا الشاهدة بصدق ما جاء به من عند ربه، قالوا: ما هذا الذي جئتنا به يا موسى من الدعوة إلى عبادة الله وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبي إلا سحر باطل وكذب مخلوق أتيت به من عند نفسك، وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه في آبائنا الأقدمين الذين مضوا قبلنا.

37- وقال موسى عليه السلام مخاطبًا فرعون وملئه: ربي الذي خلقتني وخلقكم يعلم بالمحقّ الذي جاء بالرشاد من عنده من المبطل، وسيحكم بيني وبينكم بحكمه العادل، ويعلم من الذي له العقابة المحمودة في الدار الآخرة، إنه لا يظفر الظالمون بمطلوبهم ولا ينجون مما يخافون، فصار الفلاح والفوز لموسى عليه السلام وأتباعه، وصار لفرعون وملئه سوء العقابة والهلاك.

38- وقال فرعون مخاطبًا أشراف قومه: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري في هذا الكون يستحق العبادة، ولو كان هناك إله غيري لعلمته، فما لا أعلمه فلا وجود له، فأوقد لي يا هامان على الطين نارًا حتى يشتد، فابن لي به بناء عاليًا لعلني أنظر إلى معبود موسى الذي يدعو إلى عبادته، وإنني لأظنّ موسى من الكاذبين فيما يدعيه أن الله أرسله بالنبوة، وأن هناك إلهًا غيري.

39- واشتد تكبر فرعون هو وجنوده، واستعلوا في أرض مصر بغير الحق، وكذبوا موسى ورفضوا اتباع ما دعاهم إليه دون أن يكون لهم أي حق في هذا التطاول والتعالي، وأنكروا

البعث وحسبوا أنهم بعد مماتهم لن يبعثوا، وأنه لا حساب ولا جزاء على أعمالهم، فلو علموا أنهم يرجعون إلى ربهم لما كان منهم ما كان.

40- فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذًا سريعًا، فألقيناهم في البحر وأغرقناهم حتى هلكوا جميعًا ولم ينج أحد منهم، فانظر -أيها الرسول- كيف كانت نهاية هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لما كفروا بربهم، لقد كان مآلهم ونهايتهم الهلاك بالغرق الذي أزهد أرواحهم واستأصل باطلهم.

41- وجعلنا فرعون وقومه قدوة للطغاة والضلال، يفتقدون بهم فيما ينشرونه من الكفر والضلال، ويوم القيامة لا يجدون من ينقذهم من عذاب الله، أو يدفعه عنهم؛ بسبب ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم وطغيانهم.

42- وأتبعنا فرعون وقومه في هذه الدنيا التي قضوا حياتهم فيها في الكفر والضلال خزيًا وغضبًا منّا عليهم وإبعادًا عن رحمتنا، ويوم القيامة هم من المذمومين المبعدين عن رحمة الله؛ بسبب كفرهم وفسوقهم.

43- ولقد آتينا موسى التوراة لتكون هداية ونورًا من بعد ما أرسلنا إلى الأمم السابقة رسلنا فكذبوهم، فأهلكنا هذه الأمم التي كانت من قبله بسبب تكذيبهم وكفرهم، وجعلنا في هذه التوراة: بصائر لبني إسرائيل يبصرون بها ما ينفعهم فيعملون به، وما يضرهم فيجتنبونه، فنقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، وفيها: إرشاد إلى الخير، ورحمة لمن عمل بها منهم؛ لعلهم يتذكرون نعم الله عليهم، ويتعظون بما فيها من المواعظ، فيؤمنوا بربهم ويشكروا نعمه عليهم.

44- وما كنت -أيها الرسول- حاضراً بجانب الجبل الغربي من موسى حين كلفناه بدعوة فرعون وملئه إلى توحيد الله، وما كنت من الشاهدين لذلك حتى تعرف حقيقة ما كلفنا به أخاك موسى، فتبلغه للناس عن طريق المشاهدة، فما تخبرهم به هو ما أخبرك الله به عن طريق الوحي وليس عن طريق آخر.

45- ولم تكن -أيها الرسول - معاصراً لتلك الأحداث التي حدثت لموسى وغيره من الأنبياء ولكن أخبرناك بها عن طريق الوحي، والسبب في ذلك أن خلقنا أمماً وخلائق من بعد موسى، فمكثوا زمناً طويلاً، تغيرت فيه الشرائع والأحكام، فنسوا عهد الله وتركوا أمره، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إلى ما أوحيناه إليك، وما كنت مقيماً في أهل مدين تقرأ عليهم آياتنا، فتعرف قصتهم وتخبر بها حتى يعرف الناس الأمور على وجهها الصحيح، ولكن أرسلناك من عندنا، فذلك الخبر الذي جئت به عن موسى وإقامته في مدين وحي أوحاه الله إليك، وشاهد على صدق رسالتك.

46- وما كنت -أيها الرسول- بجانب جبل الطور حين نادينا موسى وكلفناه بحمل رسالتنا، وأعطيناه التوراة وأوحينا إليه ما أوحينا من أحكام وتشريعات، ولم تشهد شيئاً من ذلك فتعلمه وتخبر الناس به، ولكننا أرسلناك وقصصنا عليك ما نريده من أخبار الأولين رحمة من ربك للبشر لتنذر قومًا لم يأتهم من قبلك من نذير يُنذروهم؛ لعلهم يتعظون بأحوال السابقين فيؤمنوا بما جئتهم ويعملوا به، فالعاقل من اتعظ بغيره.

47- ولو أن الله أنزل بهؤلاء الكفار عقوبة إلهية بسبب كفرهم ومعاصيهم وعنادهم، لقالوا محتجين: ربنا هلاً أرسلت

إلينا رسولاً من قبل أن تعذبنا فنتبع آياتك المنزلة في كتابك ونعمل بها، ونكون من المؤمنين بك الممتثلين لأوامرك المنتهين عن نواهيك، لولا ذلك لعجلنا لهم العذاب لكن أخرناهم حتى تقام عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، فأرسلناك -أيها الرسول- لدفع حجتهم.

48- ظل مشركو قريش أزماً متطاوله دون أن يأتيهم رسول ينذرهم ويبشرهم، فلما جاء النبي محمد ﷺ قريشاً بالرسالة من ربه وأيده بالمعجزات الدالة على صدقه، وعلى رأسها القرآن الكريم، سألوا اليهود عنه فلقنهم هؤلاء القوم هذه الحجة فقالوا: هلا أوتي هذا الذي أرسل إلينا مثل ما أوتي موسى من معجزات حسية كالعصا واليد والطوفان والجراد، وهلا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة، قل -أيها الرسول- رداً عليهم: أولم يكفر اليهود بما أوتي موسى من قبل كما كفروا بالمعجزات التي جئت بها من عند ربك؟! وقالوا: في التوراة والقرآن إنهما سحران تعاونا واتفقا على إضلالنا وإخراجنا عن ديننا، وقالوا: نحن بكل كافرين كفراً لا رجوع معه إلى ما جاء به هذان النبيان.

49- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين الجاحدين: لقد أنزل الله على موسى عليه السلام التوراة، وأنزل القرآن علي، وأنا مؤمن بهما، فإن كنتم أنتم مصريون على كفركم فأتوا بكتاب منزل من عند الله هو أهدى سبيلاً من التوراة والقرآن أتبعه، إن كنتم صادقين في زعمكم من أن التوراة والإنجيل نوع من السحر.

50- فإن لم تستجب لك قريش لما دعوتهم إليه من الإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن لم تبق لهم حجة، فاعلم -أيها الرسول- أن تكذيبهم بالتوراة والقرآن ليس مبنياً على دليل، وإنما يتبعون أهواءهم الباطلة، وشهواتهم الزائفة، عند ما يجادلونك في شؤون دعوتك، ولا أحد أكثر ضللاً ممن اتبع هواه دون أن تكون معه هداية من الله تهديه إلى طريق الحق، إن الله لا يُوفِّق لإصابة الحق القوم الظالمين الذين خالفوا أمر الله، وتجاوزوا حدوده؛ بسبب إصرارهم على الباطل.

51- ولقد أنزلنا هذا القرآن عليك -أيها الرسول- شيئاً فشيئاً متتابعاً، وأنت أوصلته إليهم كذلك رحمة بهم ولطفاً، وفصلنا وبيننا لهمُ القَوْلَ في هذا القرآن في كل شيء يحتاج إليه الناس، فذكرنا في القرآن: الأحكام والمواعظ والقصص، وذكرنا كذلك: ما يحتاج إليه من أمر الدنيا والآخرة؛ لعل قومك -أيها الرسول- يتعظون فيؤمنوا به ويعملوا بما فيه.

52- الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول القرآن وهم اليهود والنصارى الذين ثبتوا عليه ولم يبدّلوه، يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ لما يجدونه في كتبهم من الأخبار ببعثته ويرون فيه الحق الذي لا باطل معه.

53- وإذا يتلى هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب استمعوا له، وقالوا: آمنا به، وعملنا بما فيه، إنه الحق الذي لا شك فيه من عند ربنا، إنّا كنّا من قبل نزول هذا القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مصدقين بمحمد ﷺ أنه نبي منقادين لتعاليم الإسلام.

54- هؤلاء الذين تقدّمت صفّهم الذين آمنوا بالكتابين يُؤتيهم الله ثواب عملهم مرتين: بسبب صبرهم على الإيمان

بكتابهم، وبإيمانهم بمحمد ﷺ والقرآن المنزل عليه، والعمل بما فيه، ومن أوصافهم أنهم لا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة، ويدفعون بحسنات أعمالهم الصالحة ما اقترفوه من المعاصي، ومما رزقناهم يتصدقون في سبيل الخير والبر بدون إسراف أو تقتير.

55- وإذا سمع هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب الباطل من القول لم يُصْغُوا إليه وانصرفوا عنه تكرماً وتنزهاً، وقالوا مخاطبين أصحابه: لنا أعمالنا لا نحيد عنها والتي سيحاسبنا الله عليها، ولكم أعمالكم ووزرها عليكم والتي سيحاسبكم الله عليها، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، ولا تسمعون منّا إلا الخير، فكلُّ سَيِّجَارَى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، سلمتم منا من الشتم والأذى؛ لأننا لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها.

56- إنك -أيها الرسول- لا تهدي هداية توفيق مَنْ أحببت هدايته من الناس مثل أبي طالب وغيره، ولكن الله وحده هو الذي يملك هداية من يشاء هدايته إلى الإيمان ويوفقه إليه، وهو أعلم بمن يصلح للهداية المستعد لها ممن سبق في علمه أنه من المهتدين إلى الصراط المستقيم فيوفقه للهداية.

57- وقال المشركون من أهل مكة معتذرين عن الدخول في الإسلام: إن نتبع الإسلام الذي جئتنا به، ونتبرأ من الآلهة التي نعبدُها نُتَخَطَّفُ من أرضنا بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد خالفوك وعادوك، فلو تابعتنا لك تعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة، أولم نجعلهم متمكنين في بلد آمن يحرم سفك الدماء فيه والظلم، يأمنون فيه من إغارة غيرهم

عليهم، وهذا البلد الحرام يُجلب إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنا سُقناه إليهم؟! ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْرَ ما أنعم الله عليهم من النِّعم، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق يؤدي إلى سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم، وكان الواجب عليهم أن يشكروا الله الذي أنعم بها عليهم ويطيعوه.

58- وكثير من أهل القرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في الأمن وسعة الرزق فكفروا بربهم وكذبوا رسله وطغوا بالإسراف في الذنوب والمعاصي، واستعملوا نعمه في الشر، ولم يشكروا نعم الله عليهم، فأرسلنا عليهم العذاب وأهلكناهم، فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلًا منها، وكنا وحدنا نحن الوارثين لها منهم؛ لأنهم لم يتركوا أحدًا يرث منازلهم وأموالهم، وأنها صارت خرابًا لا تصلح للسكن.

59- وما كان ربك -أيها الرسول- مُهلك القرى التي حول مكة في زمانك حتى يبعث في القرية الكبرى منها وهي مكة رسولاً يتلو عليهم آياتنا ويبلغهم دعوته، ويبين لهم الحق من الباطل؛ لتقام الحجة عليهم، وما كنا لنُهلك أهل قرية إلا وأهلها ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله وتكذيبهم لرسله وبارتكابهم المعاصي.

60- وما رزقتم -أيها الناس- من شيء مما تتمتعون به من الأموال والزينة، فإنما هو متاع تتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، وزينة يُتَرَيَّن بها، ثم تتركونها لغيركم، وما عند الله من الثواب العظيم لأهل طاعته خير وأبقى، لأنه دائم لا نفاد له، أفلا تكون لكم عقول -أيها القوم- تتدبرون بها هذه التوجيهات

الحكيمة، وتعملون بمقتضاها، فتؤثرون ما هو باق على ما هو فانّ الذي هو خير على الذي هو أدنى؟!!

61- أفمن وعدناه في الآخرة على طاعته لربه الجنة وما فيها من نعيم، فهو ملاقٍ ما وُعد به وصائر إليه، كمن متعناه في الحياة الدنيا بما يتمتع به من المال والزينة وهو عاص لربه، ثم هو يوم القيامة من المحضرين للحساب والجزاء على عمل المعاصي بإدخاله النار؟! لا يستوي في عُرف أي عاقل، حال المؤمنين الطائعين الذين وعدناهم بالجنة ونعيمها، وحال الكافرين العاصين الذين متعناهم إلى حين بمتاع الدنيا ثم لهم النار في الآخرة.

62- ويوم يُنادي الله عز وجل المشركين، فيقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تعبدونهم من دوني، وتزعمون أنهم شركاء لي في الخلق، أو في استحقاق شيء من العبادة؛ لكي ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب؟

63- قال الذين وجب عليهم العذاب وهم الدعاة إلى الكفر والشر من الرؤساء والقادة: ربنا هؤلاء التابعون الذين أضللناهم، لقد أضللناهم كما ضللنا نحن، دعوناهم إلى الضلالة التي كنا عليها فأتاعونا فيما دعوناهم إليه، تبرأنا إليك من ولايتهم ونصرتهم، ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون الشياطين وما سولته لهم أهواؤهم وشهواتهم الباطلة.

64- وقيل لهؤلاء المشركين يوم القيامة: نادوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله فاطلبوا منهم أن يشفعوا لكم، أو أن ينقذوكم مما أنتم فيه من العذاب، فنادوهم فلم يستجيبوا لهم

ولم يلتفتوا إليهم، وعاینوا العذاب المُعد لهم، فتمنوا لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق لينجوا من العذاب.

65- ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين قائلاً: ماذا أجبتم المرسلين الذين أرسلتكم إليكم عندما أمروكم بإخلاص العبادة لي، ونهوكم عن الإِشراك والكفر؟

66- فخفيت عليهم الحجج وضاعت أَعذارهم، فلم يَدْرُوا ما يحتاجون به، ولا يسأل بعضهم بعضًا عن شيء مما يحتاجون إليه؛ لما هم فيه من الأهوال والشدائد.

67- فأما من تاب من هؤلاء المشركين من كفره وأمن بربه وعمل الصالحات في الدنيا، فهؤلاء من الفائزين في الدارين، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

68- وربك -أيها الرسول- يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويصطفي لنبوته وطاعته مَنْ يشاء من خَلقه لحمل رسالته، ولتبليغ دعوته، وليس لأحد من الأمر والاختيار شيء، وإنما ذلك لله وحده، سبحانه وتعالى تنزَّه عما يعبدون معه من الشركاء.

69- وربك يعلم ما تُخفي صدور خلقه من أسرار، وما يظهره من أقوال وأفعال، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيهم على أعمالهم.

70- وهو الله الذي لا معبود بحق غيره، له الثناء الجميل والشكر في الدنيا والآخرة، وله الحكم النافذ الذي لا مردَّ له بين خلقه، وإليه تُرَدُّون بعد مماتكم يوم القيامة للحساب على أعمالكم التي عملتموها في دنياكم فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر.

71- قل -أيها الرسول- للناس ليعتبروا ويتعظوا بمظاهر قدرتنا ورحمتنا: أخبروني ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً لا انقطاع له إلى يوم القيامة، مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء تستضيئون به وتقضون فيه حوائجكم، وتبصرون عن طريقه عجائب هذا الكون؟! أفلا تسمعون سماع فهم وقبول وانتفاع؟!

72- قل لهم -أيها الرسول-: أخبروني ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً لا انقطاع له إلى يوم القيامة، مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تستقرون وتستريحون فيه من عناء العمل والتعب بالنهار؟! أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار فتعلموا أن الله وحده هو الذي يأتيكم بهذا كله؟!

73- ومن رحمته بكم -أيها الناس- أن جعل لكم الليل والنهار فخالف بينهما، فجعل الليل مظلاً لتسكنوا فيه وتريحوا أبدانكم بعد مشقة العمل بالنهار، وجعل لكم النهار مضياً لمصلحتكم لتطلبوا فيه معاشكم، ولعلكم تشكرون نعم الله عليكم ولا تكفرونها، فتخلصوا له العبادة والطاعة.

74- ويوم يُنادي الله هؤلاء المشركين، فيقول لهم: أين شركائي الذين كنتم في الدنيا تعبدونهم من دوني وترعمون أنهم شركائي في العبادة والطاعة؛ لكي ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب؟

75- وأحضرنا من كل أمة من الأمم المكذبة نبيها يشهد على ما وقع منهم في الدنيا من شركٍ وتكذيبٍ لرسولهم، فقلنا لتلك الأمم التي كذبت رُسُلها بعد أن شهد عليهم أنبياءُهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله: هاتوا حجتكم وأدلتكم على صحة ما كنتم

عليه من الشرك والتكذيب، فانقطعت حججهم وأيقنوا حينئذ أن الحجة لله عليهم، فعجزوا عن الإتيان بالبرهان، وعلموا أن العبادة الحق إنما هي لله وحده، وغاب عنهم ما كانوا يفترون على ربهم من أن معبوداتهم الباطلة الذين أشركوهم مع الله في العبادة ستشفع لهم يوم القيامة فلم ينفعهم ذلك.

76- إن قارون كان من قوم موسى الذين أرسل إليهم موسى كما أرسل إلى فرعون وقومه، فتكبر وتجاوز الحدود في ظلمهم وفي الاعتداء عليهم، وآتيناه من كنوز الأموال شيئاً عظيماً، حتى إن مفاتيح خزائنه لينقل حملها على الجماعة القوية كثيرة العدد، إذ قال له قومه ينصحونه: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، ولا تستعمل نعم الله في الفسوق والمعاصي، إن الله لا يحب من خلقه الفرحين بها، المنكبين على محبتها، الذين لا يشكرون الله تعالى على ما أعطاهم، بل يبغضهم ويُعذبهم على ذلك.

77- واطلب فيما آتاك الله من الأموال العظيمة ثواب الدار الآخرة، بأن تنفق جزء من مالك في وجوه الخير، والعمل فيه بما يرضي الله في الدنيا، ولا تترك حظك من الدنيا بأن تتمتع فيها بالحلال دون إسراف ولا مخيلة، وكما أحسن الله إليك بهذه الأموال الكثيرة أحسن التعامل مع ربك بإخلاص العبادة له والبعد عن معاصيه، وأحسن التعامل مع الناس بالصدقة عليهم، ولا تسع في الفساد في الأرض؛ وذلك بارتكاب ما حرم الله عليك فعله من الكفر به وارتكاب المعاصي وترك الطاعات، إن الله لا يحب المفسدين في الأرض وسيعاقبهم على ذلك أشد العقاب.

78- قال قارون لقومه الذين وعظوه رادًا لنصيحتهم، كافرًا بنعمة ربه: أنا لا أفقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال الكثير الذي تحت يدي لعلمه بأني أستحقه، وبسبب علمي وجدي واجتهادي، ولمحبته لي، فكيف تطلبون مني أن أتصرف بمقتضى نصائحكم؟ أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه قوة وبطشًا، وأكثر جمعًا للأموال؟! فما نفعهم قوتهم ولا أموالهم، ولا يُسأل المجرمون عن ذنوبهم لعلم الله تعالى بها، فالله لا يخفى عليه شيء، إنما يُسألون سؤال توبيخ وتبكيث وإفصاح.

79- فخرج قارون على قومه في زينته، مُريدًا بذلك إظهار ألبته وكثرة أمواله، وحين رآه الذين يطمعون في زينة الحياة الدنيا من قومه، قالوا على سبيل التمني والانبهار: يا ليت لنا مثل ما أعطي قارون من المال والزينة، إن قارون لذو نصيب وافرٍ عظيم من الدنيا.

80- وقال الذين أوتوا العلم بالله وشرعه وعرفوا حقائق الأمور للذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون: ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فتواب الله في الآخرة وما أعده من النعيم لمن آمن به وبرسله وعمل الصالحات خير مما أوتي قارون من زينة الدنيا، ولا يَنْقَبِلُ هذه النصيحة ويوفق للعمل بما تقتضيه إلا من يُجاهد نفسه، ويصبر على طاعة ربه، ويجتنب معاصيه ويصبر على أقداره المؤلمة، ويصبر على جوازب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، أو أن تحول بينهم وبين ما خلقوا له.

81- وتمادى قارون في بغيه، ولم يستمع لنصح الناصحين فحسبنا به وبداره الأرض انتقاماً منه على كفره وبغيه، فما كان له من جماعة ينصرونه من عذاب الله، وما كان ممتنعاً من الله بماله وفنته إذ أحلّ به نعمته فلم يستطع هو أو قومه رد عقوبة الله.

82- وصار الذين تمنوا ما كان فيه من المال والزينة قبل الخسف به يقولون بعد أن رأوا هلاكه: متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: إن الله يُوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويُضيقه على من يشاء منهم، فما أعجب قدرة الله في إعطائه ومنعه وتصريف الأمور، وما أشد غفلتنا عندما تمنينا أن نكون مثل قارون، لولا أن الله منّ علينا فلم يعاقبنا على ما قلنا لخسف بنا مثل ما فعل بقارون، إنه لا يفلح الكافرون لا في الدنيا ولا في الآخرة فمصيرهم خسارة الدارين.

83- تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم تكبراً عن الحق في الأرض من الإيمان بالله واتباع ما جاءت به الرسل، ولا يريدون فساداً فيها، والعاقبة الطيبة الحسنة وهي: الجنة ونعيمها لمن اتقى عذاب الله، فامتثل أوامرهِ وعمل الطاعات واجتنب المحرمات وصان نفسه عن كل سوء وقبيح.

84- من جاء في دنياه بالحسنة يوم القيامة من توحيد الله وعمل الصالحات وفق ما شرع الله مُبتغياً بها ثوابه؛ فله في مقابلها عندنا بفضلنا وإحساننا أجر عظيم خير من عمله الذي عمله في الدنيا، وذلك الخير هو الجنة ونعيمها الدائم، ومن جاء يوم القيامة بالأعمال السيئة من الكفر والشرك والمعاصي التي

عملوها في دنياهم، فلا يُجزى الذين عملوا السيئات على أعمالهم إلا بالجزاء الذي يناسب أعمالهم في القبح والسوء دون زيادة.

85- إن الذي أنزل عليك -أيها الرسول- القرآن، وكلفك بحفظه وتلاوته، وفرض عليك تبليغه للناس والعمل بأوامره ونواهيه لمُرْجِعُكَ فَاتِحًا إِلَى بَلَدِكَ مَكَّةَ الَّذِي خَرَجْتَ مِنْهُ مُهَاجِرًا وَأَنْتَ مُطَارِدٌ مِنْ أَعْدَائِكَ، قُلْ -أيها الرسول- لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: رَبِّي وَحْدَهُ هُوَ الْأَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي وَبِالضَّالِّ مَنِي وَمَنْكُمْ، وَسَيَجَازِي كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ.

86- وما كنت -أيها الرسول- قبل وحينا إليك بالرسالة، تتوقع أو تُؤَمِّلُ نَزُولَ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ، لَكِنْ هِيَ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ إِذْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَابَهُ، وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَأَكْثَرَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَامْضِ فِي طَرِيقِكَ وَلَا تَكُونَنَّ عَوْنًا لِأَهْلِ الشَّرْكِ وَالضَّلَالِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شَرِّكَ وَضَلَالٍ.

87- وَلَا يَصْرِفَنَّكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَنْ تَبْلِيغِ آيَاتِ رَبِّكَ وَأَحْكَامِهِ وَالْعَمَلِ بِهَا بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَهَا عَلَيْكَ فَتَتْرَكَ تِلَاوَتَهَا وَتَبْلِيغَهَا، وَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، بَلْ كُنْ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ لَهُ الَّذِينَ يُفَرِّدُونَ رَبَّهُمْ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ.

88- وَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا آخَرَ، فَإِنَّ الْحَقَّ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهَ، كُلُّ شَيْءٍ فَإِنَّ زَوَائِلَ إِلَّا وَجْهَهُ فَإِنَّهُ بَاقٍ، لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمُ يَحْكُمُ بِمَا يَشَاءُ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تَرْجِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمَلْتُمُوهَا فِي دُنْيَاكُمْ.

سورة العنكبوت

1- (آلَمْ) الحروف المقطّعة لا يعرف معناها إلا الله، نزلت لتحدي العرب أهل الفصاحة.

2- أَيْظُنُّ الناس أنهم إذا قالوا: آمنا أن الله يتركهم بدون ابتلاء واختبار يبين حقيقة ما قالوا أمؤمنون هم حقًا أم لا؟ ليس الأمر كما ظنوا؛ لأن الإيمان يكلف صاحبه الكثير من الابتلاءات والاختبارات حتى يتميز قوي الإيمان من ضعيفه.

3- ولقد اختبرنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك من الأمم السابقة الذين أرسلنا إليهم رُسُلنا، فليعلمنَّ الله علمًا ظاهرًا للخلق يكشف صدق الصادقين في إيمانهم، وكذب الكاذبين فيه؛ ليميز كلاً من الصادق والكاذب.

4- بل أظُنُّ الذين يعملون المعاصي من شرك وغيره أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم، أو أن في إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم فيفوتونا بأنفسهم ولا نقدر عليهم؟ بنس الظن الذي ظنوه، والحكم الذي يحكمون به، فإنه حكم جائر لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، فهم لا يعجزون الله، ولا نجاة لهم من عذابه إن استمروا على كفرهم وشركهم وماتوا على ذلك.

5- من كان يرجو لقاء الله يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه، ويطمع في ثوابه فليثبت على إيمانه، وليواظب على العمل الصالح، وليعلم أن أجل الله الذي أَجَلَه لبعث خلقه للثواب والعقاب لآتٍ قريبًا في وقته الذي حدده، وهو السميع لأقوال عباده، العليم بما يخفونه وما يعلنونه لا يخفى عليه شيء، وسيجازيهم عليها.

6- ومن جاهد نفسه بحملها على طاعة ربه والبعد عن معصيته، وجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه عليه لا على غيره، إن الله لغني عن أعمال جميع خلقه، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

7- والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات، وصبروا على ابتلائنا لهم لَنَمُحُوَنَّ عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ مِنْ صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَنُنَبِّئَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا بِأَن نُّعْطِيَهُمْ عَلَى الْحَسَنَةِ أَضْعَافَ أَمْثَالِهَا.

8- ووصينا الإنسان بوالديه أن يبیرهما ويحسن إليهما بالقول والعمل، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، وإن جاهدك والداك -أيها الإنسان- على أن تشرك معي في عبادتي ما ليس لك به علم، فلا تمتثل أمرهما، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، فبروا والديكم وقدموا طاعتهما، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء، إليَّ وحدي مصيركم يوم القيامة، فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر، وسأجازي كلًّا بما يستحقه.

9- والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، لندخلنهم يوم القيامة الجنة في جملة عباد الله الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله.

10- ومن الناس من يقول بلسانه: آمناً بالله، فإذا آذاه الكفار على إيمانه جَزَعَ مِنْ أَذَاهُمْ، وجعل أذاهم له في الدنيا بمنزلة عذاب الله في الشدة والألم فارتدَّ عن إيمانه موافقة للكفار، ولئن

جاء نصر من ربك -أيها الرسول- لأهل الإيمان بالله ورسوله ليقولنَّ هؤلاء: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ -أيها المؤمنون- على الإيمان، وكنا ننصركم على أعدائكم، وما دام الأمر كذلك فأشركونا معكم فيما ترتب على النصر من مغنم وخيرات، أليس الله بأعلم بما في صدور جميع خلقه من خير أو شر، لا يخفى عليه ما فيها من الإيمان أو الكفر؟!

11- ولْيَعْلَمَنَّ اللهُ علماً ظاهراً للخلق الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، ولْيَعْلَمَنَّ المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُضمرون الكفر؛ وذلك بالابتلاء والاختبار والمحن؛ ليميز المؤمن من المنافق فيجازيهم بما ظهر منهم.

12- وقال الذين كفروا بالله واليوم الآخر للذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وعملوا بشرعه: اتركوا دينكم واتبعوا ديننا ونتحمل عنكم آثام خطاياكم ونُعاقب عليها بدلاً منكم يوم القيامة إن كان هناك بعث وحساب، وفي الحقيقة ليسوا بحاملين شيئاً من آثامهم التي زعموا حملها يوم القيامة، وإنهم لكاذبون فيما قالوا.

13- ليس الأمر كما زعم هؤلاء المشركون الداعون إلى باطلهم، من أنهم يحملون خطايا المؤمنين، بل الحق أنهم سيحملون أوزارهم التي عملوها في الدنيا، وسيحملون فوقها أوزار مَنْ أضلّوهم وصدّوهم عن سبيل الله مع أوزارهم، دون أن ينقص من أوزار تابعيهم شيء، وليُسألَنَّ يوم القيامة عما كانوا يخلقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي أدت بهم إلى سوء المصير.

14- ثم توعّد الله مشركي قريش إن استمروا على كفرهم وتعذيبهم أن يهلكهم كما أهلك قوم نوح، فأخبر سبحانه أنه أرسل نوحًا إلى قومه فمكث فيهم نبيًا داعيًا مدة ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك ليلاً ونهارًا، وسرًا وعلانية، فكذبوه ولم يستجيبوا له واستمروا على كفرهم حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه السلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فأهلكهم الله بالطوفان والغرق، وهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم وتكذيبهم وطغيانهم.

15- فأنجينا نوحًا ومَن تبعه ممن ركب معه في السفينة من الهلاك بالغرق، وجعلنا ذلك عبرة للناس يعتبرون بها ويتعظون حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على ممر الأيام والأعوام.

16- واذكر -أيها الرسول- قصة إبراهيم عليه السلام حين دعا قومه قائلًا: أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا عقابه بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ذلكم الذي أمركم به من العبادة والتقوى أفضل لكم من الشرك، إن كنتم تعلمون وتميزون الخير من الشر.

17- ما تعبدون -أيها المشركون- من دون الله إلا أصنامًا تتحتونها بأيديكم لا تنفع ولا تضر، وأنتم تفترون كذبًا حين تزعمون استحقاقها للعبادة، وتكذبون بتسميتكم إياها آلهة، وهي لا تغني عنكم ولا عن نفسها شيئًا إنَّ أوثانكم التي تعبدونها من دون الله لا تقدر أن ترزقكم شيئًا، وما دام الأمر كذلك فاطلبوا الرزق من الله وحده فهو الرزاق الذي يكفيكم ويغنيكم، أما آلهتكم فلا تملك لكم رزقًا، وأخلصوا له العبادة وحده، واشكروه

على رزقه إياكم، فأنتم وجميع الخلق إلى الله وحده تُرثون بعد مماتكم يوم القيامة لا إلى أصنامكم، فيجازيكم على ما عملتموه من خير أو شر، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويثيبكم عند القدوم عليه.

18- وإن تكذبوا -أيها المشركون- برسولنا محمد ﷺ فيما جاء به من عند ربه ودعاكم إليه من عبادة الله وحده، فلستم أول من يفعل ذلك، فقد كذبت أمم من قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود، كذبت رُسُلها فيما دعوهم إليه من الحق، فكانت عاقبة المكذبين أن حل بهم غضب الله، وما على الرّسول إلا أن يبلغكم عن الله رسالته البلاغ الواضح، وقد بلغكم ما أمره الله بتبليغه إليكم.

19- أولم ير هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث كيف يخلق الله الخلق ابتداء من العدم، ثم يُعيدُه من بعد فنائه إلى الحياة مرة أخرى في الآخرة؟ إن الذي بدأ الخلق أول مرة لا يتعذر عليه إعادته، إن ذلك على الله سهل، كما كان إنشاؤه في البداية سهلاً عليه؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

20- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين المنكرين للبعث بعد الموت: سيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم وتتبعوا أحوال الخلق، فتأملوا كيف أنشأ الله الخلق على أطوار مختلفة، وأحوال شتى، ولم يتعذر عليه خلقه، فكيف يتعذر عليه إعادة إنشائه مرة أخرى للبعث والحساب؟ إن الله على كل شيء قدير، فلا يعجز عن بعث الناس إلى الحياة مرة أخرى بعد فنائهم كما لم يعجز أن أوجدهم في المرة الأولى.

21- يعذب مَنْ يشاء من خلقه بعذله، ويرحم مَنْ يشاء منهم بفضله، فهو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما

يريد، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة فيجازيكم بما عملتم، فاكتمسبوا في هذه الدار أسباب رحمته وهي الطاعات، وابتعدوا عن أسباب عذابه، وهي المعاصي.

22- ولستم -أيها الناس- بمعجزي الله إن عصيتموه سواء كنتم في الأرض، أم كنتم في السماء، فهو قادر على عقابكم، وما كان لكم من دون الله من ولي يتولى أمركم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ولا نصير ينصركم من ربكم إن أراد بكم سوءاً فيدفع عنكم المكاره.

23- والذين كفروا بآيات الله، وأنكروا أدلته الدالة على وحدانيته وقدرته، وجدحوا لقاءه والورود عليه يوم تقوم الساعة: أُولَئِكَ انقطع أملهم من رَحْمَتِي إياهم في الآخرة انقطاعاً تاماً؛ لَمَّا عاينوا ما أُعْدَّ لهم من العذاب، وأولئك لهم عذاب مُوجِع لا يعلم مقدار شدته إلا الله.

24- فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إلا أن قال بعضهم لبعض بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده وكسّر أصنامهم: اقتلوه بالسيف أو حرقوه بالنار؛ لتستريحوا منه، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها، فاتفقوا على إحراقه بالنار، فأوقدوا له ناراً عظيمة وألقوه فيها انتصاراً لآلهتهم، فأنجاه الله منها، وجعلها عليه برداً وسلاماً، إن في إنجائنا لإبراهيم من النار لأدلة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يصدّقون الله ويعملون بشرعه، فهم من ينتفع بالعبر والآيات.

25- وقال إبراهيم عليه السلام لقومه: يا قوم إنما عبدتم من دون الله أصناماً باطلة، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم في الحياة الدنيا، تتعارفون وتتحابون على

عبادتها، وتتوادون على خدمتها، فيجامل بعضكم بعضاً في عبادتها على حساب الحق والهدى، ثم يوم القيامة يتبرأ بعضكم من بعض ويلعن بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب، ومصيركم الذي تصيرون إليه جميعاً النار، وليس لكم ناصر يمنعكم من دخولها لا من أصنامكم التي عبدتموها من دون الله ولا من غيرها، فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ 26- فأمن لوطٌ عليه السلام بإبراهيم عليه السلام وصدقه في كل ما جاء به عن ربه، وقال إبراهيم عليه السلام: إني تارك دار قومي ومهاجر إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها أرض الشام المباركة؛ لأبلغ دعوته، إن الله هو العزيز الذي لا يُغَالَب، الحكيم في تدبيره.

27- وبعد هجرة إبراهيم إلى الشام وهبنا له ابناً اسمه إسحاق، ومن ذرية إسحاق يعقوب، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم، فما من رسول بعثناه بعده إلا كان من نسله، وعليهم نزلت الكتب السماوية المنزلّة من عند ربهم، وأعطيناه ثواب صبره على الحق في الدنيا بالذكر الحسن والثناء الجميل وصلاح الولد، وإنه في الآخرة لمن الصالحين بما له من الأجر الحسن والثواب العظيم.

28- واذكر -أيها الرسول- نبّي الله لوطاً عليه السلام حين قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح: إنكم لتأتون الفعلة القبيحة التي تابأها الفطر السليمة، ما سبقكم إلى فعلها أحد من العالمين.

29- أنكم لتأتون الرجال في أدبارهم لقضاء شهوتكم، وتذرون نساءكم التي أحلها الله لكم، وتقطعون على المسافرين

طرقهم فلا يمرون عليكم خشية أن تنتهبوا أموالهم، أو أن تكرهوهم إكراهًا على ارتكاب الفاحشة معهم، وتأتون في مجالسكم الفواحش المنكرة لا تستحون من فعلها، وتسخرون من الناس بإيذائهم بما لا يليق من الأقوال والأفعال، فلم يكن جواب قوم لوط له بعد أن نهاهم عن فعل الفاحشة إلا أن قالوا: عَجِّلْ لَنَا يَا لُوطُ بَعْدَ اللَّهِ الَّذِي تَتَّوَعَدُنَا بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا تَوَعَدْتَنَا بِهِ أَنْ عَذَابًا سَيَنْزِلُ عَلَيْنَا، بِسَبَبِ أَفْعَالِنَا هَذِهِ الَّتِي أَحْبَبْنَاهَا.

30- ولما كَذَّبَ قوم لوط نبيَّهم لوطًا عليه السلام واستهزأوا به واستعجلوا نزول العذاب عليهم: قال لوط داعيًا ربه بعد أن أيس منهم، وعلم استحقاقهم العذاب: رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْخَارجِينَ عَنْ طَاعَتِكَ السَّاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ؛ فَقَدْ كَفَرُوا وَفَعَلُوا الْفَاحِشَةَ وَأَصْرُوا عَلَيْهَا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ وَأَرْسَلَ مَلَائِكَةً لِإِهْلَاكِهِمْ.

31- ولقد جاءت رسل الله من الملائكة يبشرون إبراهيم عليه السلام ببشرى من الله؛ أنه مع كبره سيولد له إسحاق من امرأته سارة التي صارت عجوزًا، وسيولد لإسحاق ولده يعقوب، وسيكون ذلك في حياة إبراهيم، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ حينئذ قالت الملائكة له: إنا مرسلون من ربك لإهلاك قرى قوم لوط، وهي قرى سدوم وما حولها، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ لأنفسهم بكفرهم وفعلهم الفواحش والمعاصي.

32- قال إبراهيم عليه السلام للملائكة بخشيته وشفقته: إِنَّ فِي هَذِهِ الْقُرَى الَّتِي جِئْتُمْ لِإِهْلَاكِهَا لُوطًا، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَكَيْفَ تَهْلِكُونَهَا وَهُوَ مَعَهُمْ فِيهَا؟ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ:

نحن أعلم بمن فيها من المؤمنين ومن الكافرين، لننجيَّه وأهله من الهلاك الذي سينزل على أهل قريته إلا امرأته كانت من الباقين في العذاب، فسنهلكها معهم بسبب كفرها وإقرارها جرائم قومها، وعدم سعيها لإزالتها وإنكارها، كما هو شأن الزوجات الصالحات.

33- ولما جاءت الملائكة الذين بعثناهم لإهلاك قوم لوط إلى نبي الله لوط ساءه مجيئهم خوفاً أن يعتدي قومه عليهم، وهو لا يستطيع الدفاع عنهم، فقد ظنهم ضيوفاً من البشر، حيث جاءت الملائكة في صورة رجال، وقومه يشتهون الرجال من دون النساء، ولاحظ الملائكة على لوط قلقه وخوفه، فقالت الملائكة له على سبيل إدخال الطمأنينة على نفسه: لا تَخَفْ لن يصل قومك إلينا ولا إليك بسوء، ولا تحزن مما أخبرناك به من إهلاكهم، إنّنا منجّوك وأهلك المؤمنين من العذاب النازل بقومك، إلا امرأتك فإنها باقية معهم وهالكة فيمن سيهلك من قومها؛ بسبب تواطئها معهم، ورضاها بأفعالهم القبيحة.

34- إنا منزلون بأمر الله وإرادته على أهل هذه القرية التي تعمل الخبائث عذاباً شديداً من السماء، حيث سيُقدفون بحجارة من سجيل لا يملكون دفعها أو النجاة منها؛ وذلك بسبب كفرهم وارتكابهم الفاحشة القبيحة المنكرة.

35- ولقد أبقينا من ديار قوم لوط بعد تدميرها علامة واضحة تدل على هلاك أهلها، يتعظ ويعتبر بها أصحاب العقول.

36- وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب شُعيباً عليه السلام فقال لهم ناصحاً ومرشداً: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له،

وأخلصوا له العبادة، واتركوا ما أنتم عليه من شرك، وارجوا النجاة من أهوال يوم القيامة والجزاء الحسن بعبادتكم إياه، ولا تُفسدوا في الأرض بفعل المعاصي ونشر الفساد، ولكن توبوا إلى ربكم منها.

37- فَكَذَّبَ أَهْلَ مَدْيَنَ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ، فَأَصَابَتْهُمْ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ صَرَعى سَاقِطِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ قَدْ لَصِقَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْطَّرَابِ؛ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

38- وَأَهْلَكْنَا كَذَلِكَ عَادًا قَوْمَ هُودٍ وَثَمُودَ قَوْمَ صَالِحٍ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، كَمَا أَهْلَكْنَا غَيْرَهُمْ، وَقَدْ ظَهَرَ لَكُمْ -يَا أَهْلَ مَكَّةَ- بَعْضُ مَسَاكِنِهِمُ الَّتِي صَارَتْ خَرَابًا وَخَلَاءَ مِنْهُمْ؛ مَا يَدْلُكُمْ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، وَحُلُولِ نَقْمَتِنَا بِهِمْ جَمِيعًا، مَعَ قُوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَلَقَدْ حَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي؛ بِسَبَبِ وَسْوَستِهِ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا أَفْضَلُ مِمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، فَصَرَفَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ -طَرِيقِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ- وَكَانَتْ لَهُمْ عُقُولٌ يَسْتَطِيعُونَ التَّمْيِيزَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خَلَقَتْ لَهُ فَاخْتَارُوا الضَّلَالَةَ وَالْكَفْرَ عَلَى الْهُدَى وَالْإِيمَانِ.

39- وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَارُونَ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِ وَبَغْيِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَهْلَكْنَا فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ بِالْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ جَمِيعًا مُوسَى بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صَدَقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي أَرْضِ مِصْرَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَكُونُوا لِيَفُوتُوا مِنْ إِهْلَاكِنَا لَهُمْ وَعَذَابِنَا، بَلْ كُنَّا مُقْتَدِرِينَ عَلَيْهِمْ.

40- فأخذنا كلاً من هؤلاء المذكورين المكذبين لرسلنا بعذابنا المهلك؛ بسبب ذنوبهم التي أصرّوا عليها دون أن يرجعوا عنها: فمنهم قوم لوط الذين أرسلنا عليهم ريحاً شديدة ترميهم بحجارة من طين متتابع فأهلكتهم، ومنهم مَن أخذته الصيحة، وهم قوم صالح وقوم شعيب، ومنهم مَن خسفنا به وبداره الأرض كقارون، ومنهم مَن أغرقنا وهم قوم نوح وقوم فرعون، وما كان الله ليظلمهم بإهلاكهم بذنوب غيرهم؛ لكمال عدله، وغناه التام عن جميع خلقه، ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم بالشرك والمعاصي فاستحقوا العذاب من الله.

41- حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها ويرجون نصرها ونفعها وشفاعتها، كحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً لنفسها ليحفظها ويحميها من الاعتداء عليها، فلم يُغن عنها شيئاً عند حاجتها إليه لشدة ضعفه ووهنه، فكذلك حال المشركين مع أوليائهم الذين اتخذوهم من دون الله لن يُغنوا عنهم شيئاً، وإن أضعف البيوت لبّيت العنكبوت، فهو لا يدفع عنها عدوّاً، وكذلك أصنامهم لا تنفع ولا تضر عابديها ولا تشفع لهم، لو كانوا يعلمون هذه الحقيقة ما عبدوا تلك الآلهة التي لا تدفع عنهم شيئاً من الأذى.

42- إن الله يعلم علماً تاماً الذي يعبدّه هؤلاء المشركون من دونه مما يشركون به من الأنداد، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات أم من غير ذلك، وهي ليست بشيء في الحقيقة، بل هي مجرد أسماء سمّوها لا تنفع ولا تضر، وهو العزيز في انتقامه ممن كفر به وعبد غيره، الحكيم في خلقه وتقديره وتدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها.

43- وهذه الأمثال نضربها للناس لتبصّرهم بالحق وليتعلموا منها ولينتفعوا بها، وما يفهم صحتها وحسنها ويتدبرها إلا العالمون بالله وآياته وشرعه المتدبرون في خلق الله.

44- خلق الله السماوات والأرض بالعدل ولم يخلقهما عبثاً وباطلاً، حتى يكون هذا الخلق متفقاً مع مصالح عباده ومنافعهم، إن في ذلك الخلق لدلالة عظيمة للمؤمنين على قدرة الله وأنه المستحق للعبادة، وخص الله المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يتدبرون وينتفعون بهذه الآيات في التعرف على وحدانية الله وقدرته دون غيرهم.

45- اتل -أيها الرسول- على الناس ما أنزل عليك من هذا القرآن الموحى به إليك، واعمل بالذي جاء فيه بامثال ما يأمر به، واجتنب ما ينهى عنه، وداوم على ذلك، وأقم الصلاة في أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان وبإتمام أركانها وواجباتها وسننها على أكمل وجه، إن المحافظة على الصلاة على الوجه المشروع تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات، والمحافظة على الصلاة تُقوّي رغبته في الخير، وتضعف رغبته في الشر، ولذكر الله بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من أنواع الذكر، أعظم من كل شيء آخر، والله يعلم ما تصنعون من الخير والشر لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

ar496v1.0 - 06/09/2026